«الجنرال في متاهته»:

وحدة الشعوب بين مطرقة الاستعمار وسندان التجزئة

نور الدين بورحيل *

■ يحتوي أدب أمريكا اللاتينية عموما، وروايات غارسيا ماركيز على الخصوص، على عدة مواضيع وقضايا اجتماعية وسياسية ووجودية وفكرية تتشابه في معظمها إلى حد بعيد بالقضايا والمشاكل المعاشة في الوطن العربي، مما يدفعنا إلى القول بوجود تخاطر لا شعوري أو شعوري وانتقال الافكار وتوارد الخواطر بين كتاب أو أدباء أمريكا الجنوبية وأدباء العالم العربي، وهذا الأمر ليس عجيبا وخارقا لأنه إذا عرف السبب بطل العجب : فهناك عدة أمور مشتركة بيننا نحن العرب وبين شعوب أمريكا اللاتينية: الاستعمار، التبعية الاقتصادية، التزايد السكاني المهول والمخيف لدول الشمال، التخلف الاجتماعي بأعراضه: البطالة، المرض، التسلط.. محاولات النهوض والتنمية للخروج من التخلف، حركات التحرر الاجتماعي ثم الرغبة في الوحدة بين شعوبها.. إلخ. أغلب المبدعين من أفريقيا والعالم العربي وأمريكا اللاتينية، وإن اختلفوا في طرق التعبير والأساليب الفنية، فإنهم يتفقون في الجوهر على عدة قضايا مصيرية وذلك مما سمح بظهور تيار من المبدعين في دول الجنوب يخترقون الحدود والقارات ويتواصلون فيما بينهم، وهو ما دفعنا إلى القيام بدراسة مقارنة ومطولة في حلقات وسنركز، بداية، على إحدى الروايات المهمة. إنها رواية «الجنرال في متاهته» للروائي الكولومبي غارسيا ماركيز.

لماذا الجنرال في متاهته؟ ثم من هو الجنرال؟ ولماذا كتب عنه غارسيا ماركيز هذه الرواية؟

الجنرال سيمون بوليفار: محرر الشعوب وصاحب الحلم في الوحدة:

هذه الرواية تتحدث عن حلم طالما راود شعوب أمريكا الجنوبية، وطالما راود شعوب العالم العربي إنه الحلم والرغبة في الوحدة بين تلك الشعوب وإلغاء مسألة الحدود الوهمية التي وضعها المستعمر بين دول وشعوب أمريكا الجنوبية وكذلك بين شعوب ودول الوطن العربي.

هذا الحلم السهل الصعب الممتنع لا يقدر على تحقيقه إلا زعماء قادرون من أبناء تلك الشعوب التي أنجبتهم لتلك المهمة. ويمكن لنا أن نتساءل عن عدم تحقق الوحدة. لكن السؤال المفارقة

لماذا دخلت دول أوروبا في الوحدة الاقتصادية والسياسية رغم اختلاف لغاتها بينما مُنع على دول وشعوب العالم العربي وأمريكا الجنوبية ان تتوحد فيما بين شعوبها لوجود عناصر الوحدة: اللغة، الدين، الدم، التاريخ، الجغرافيا..

إن الوحدة بالنسبة لشعوب أمريكا الجنوبية وكذلك بالنسبة للوطن العربي ليست مسألة ثانوية أو عاطفية، بل هي مسألة وجود ومسألة مصير «أن نكون او لا نكون» نكون بالوحدة ولا نكون بالتجزئة.

إن الجنرال سيمون بوليفار هو بطل الرواية ومحرر شعوب أمريكا اللاتينية من الاستعمار الاسباني وصاحب الحلم في الوحدة بين تلك الشعوب ورمز من رموزها التاريخية. إن الوطن العربي أثناء الاستعمار الذي تعرض له من طرف الانجليز والطليان والفرنسيين عرف عدة زعماء قاوموا الاستعمار وحاولوا تحقيق الوحدة بين شعوبها، ولو عبر مراحل، مثلما فعل جمال عبد الناصر وغيره. وقد تعرضا كلاهما لمكائد سياسية وعسكرية وعراقيل وصعوبات وضغوطات خارجية.

إن مجرد وضع مقارنة بسيطة بين الجنرال بوليفار في رواية «الجنرال في متاهته» وجنرال «خريف البطريق» يظهر الفرق كبيرا. الأول حارب الاستعمار وحرر الشعوب منه أما الثاني فإنه جنرال ديكتاتوري وضعه الاستعمار كحليف له وكمعرقل للوحدة وسوف نقوم بهذه الدراسة بينهما في دراسة مقارنة لاحقة.

ملاحظة أساسية وهي أن قراءتنا لرواية «الجنرال في متاهته» تجعلنا نقرأها بعين عربية قومية وحدوية.

مغبونو ومنبوذو الاستقلال:

بعد استكمال تحرير أمريكا الجنوبية من الاستعمار الاسباني وحصولها على الاستقلال، بدأت مشكلة أخرى، حيث استولى كل جنرال من جنرالاته على بلد من بلدان أمريكا الجنوبية ووضع الحدود وأعلن نفسه رئيسا أبديا عليها، وبدت محاولة إنقاذ «الحلم الذهبي» بتوحيد القارة متأخرة وصعبة «فالبيرو التي كانت تحت سلطة أرستقراطية مرتدة بدت استعادتها للوحدة مستحيلة، وكان الجنرال أندريس دي سانتا يمسك بزمام بوليفيا يقودها في اتجاه خاص، وأعلنت فنزويلا استقلالها الذاتي تحت سلطة الجنرال خوسيه انطونيو، أما الجنرال خوان فلوريس، وهو الجنوبي الكامل، فقد وحّد غواياكل وكيتو ليخلق منهما جمهورية الاكوادور المستقلة. أما جمهورية كولومبيا، الجنين الاول لوطن فسيح وموحد، فكانت مختزلة لولاية غرناطة الجديدة سابقا، وهكذا فإن ستة عشر مليونا (حوالي سنة 1820) من الامريكيين الجنوبيين الذين ما كادوا يبدأون الحياة الحرة حتى أصبحوا تحت إرادة تسلط زعمائهم المحليين: واختتم الجنرال قائلا:

«وباختصار، فإن كل ما حققناه بأيدينا يخربه الآخرون بأقدامهم».

فقال المارشال سوكرة:

«إنها إحدى سخريات القدر، يبدو أننا غرسنا فكرة الاستقلال عميقا جدا، حتى أصبحت هذه الشعوب تسعى اليوم إلى الاستقلال عن بعضها البعض» (ص 27، 28 من الرواية).

إذا، فبعد الاستقلال والتحرر من الاستعمار بدأ نوع آخر من الاستعمار والتسلط الداخلي على الشعوب وتحول الاستقلال إلى تجزئة قطرية ضيقة بدل أن يكون وحدة متكاملة. إن نفس السيناريو ينطبق على دول العالم العربي التي ما إن حصلت على الاستقلال وتحررت ولو نسبيا من الاستعمار حتى اتجهت إلى القطرية ووضع الحدود بين شعوبها وأصبحت كل منطقة أو قطر لها حدود وعلم ونشيد ورئيس.

إن مفهوم الاستقلال غير واضح، هل هو استقلال اقتصادي وسياسي واجتماعي أم أنه استقلال شكلي فقط ؟ إن جل الدول (في أمريكا الجنوبية أو العالم العربي) بعد حصولها على «الاستقلال»، لم يتحقق حلم شعوبها في الوحدة والحرية والكرامة والتغيير الاجتماعي والنماء، مما جعل مفهوم الاستقلال مفهوما «شكليا» فقط، لأن الجهاد الاكبر يبدأ بعض الحصول على الاستقلال وذلك بالتنمية الحقيقية. إن جنود الجنرال بوليفار بعد حصولهم على الاستقلال لم يعرفوا ماذا يفعلون به «ها نحن أولا، قد نلنا الاستقلال أيها لجنرال: فقل لنا الآن ماذا نفعل به؟».

فكاد رده:

«الاستقلال مجرد مسألة كسب حرب، التضحيات الكبيرة ستأتي فيما بعد، لجعل هذا الشعور وطنا واحدا».

فيقولون له:

«التضحية هي الشيء الوحيد الذي فعلناه أيها الجنرال».

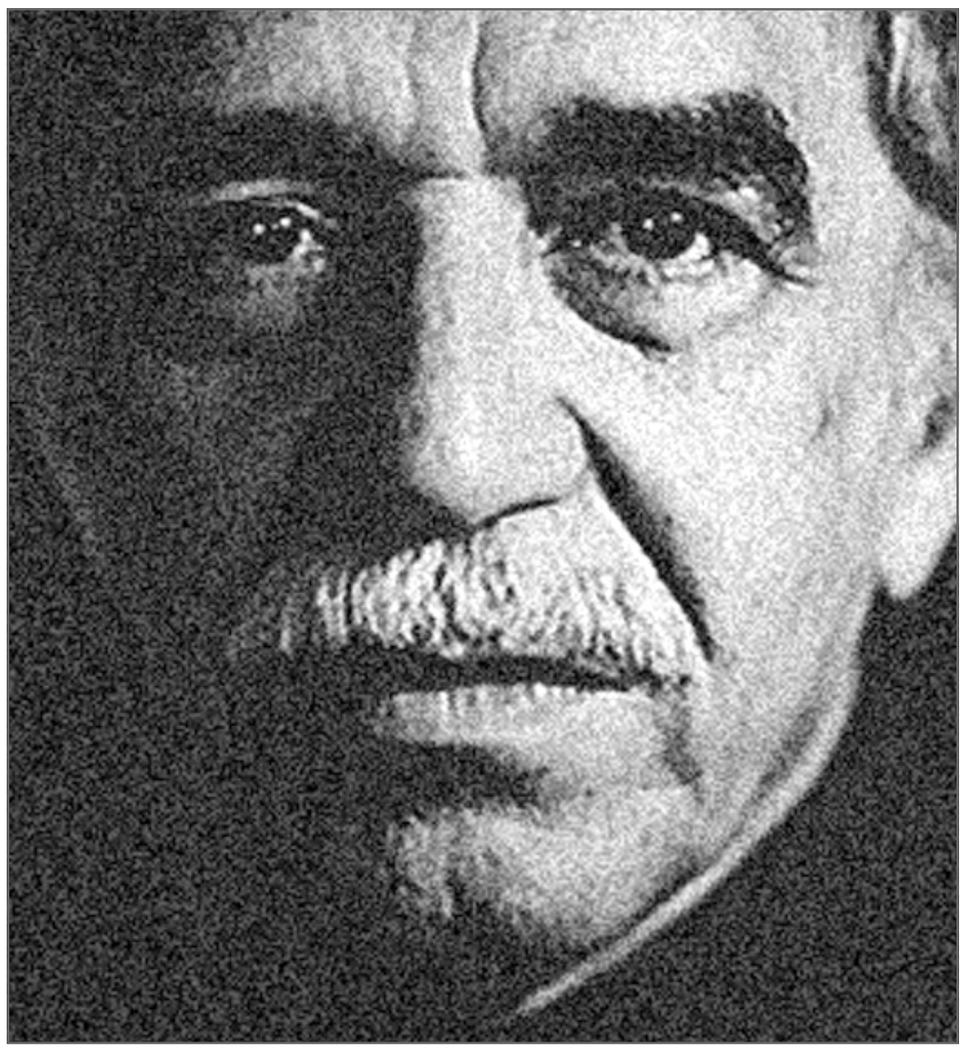

ماركيز

فلا يتراجع نقطة واحدة، ويقول:

«ما زلنا بحاجة للمزيد فالوحدة لا تقدر بثمن» (ص 106)

طريق الوحدة الصعب:

إن الوحدة تساوي السيادة، أما التفرقة والتجزئة فإنها تعادل وتساوي العبودية والخضوع. إن سر قوة الشعوب في وحدتها نحو الأهداف والمصير والأحلام المشتركة. لقد أرجع الجنرال سبب الخضوع والعبودية إلى التفرقة بين أجزاء وأقطار القارة قائلا:

«ليس الاسبان وإنما تفرقتنا هي التي أعادتنا إلى العبودية من جديد» (ص 15 من الرواية).

إذا، هناك عوامل داخلية وأخرى خارجية معرقلة للوحدة من بين العوامل الخارجية، الاستعمار الجديد الذي يستخدم الديون التي تثقل كاهل الدول والشعوب ومحاربة فرص قيم اجتماعية وثقافية مخالفة بالاضافة إلى الرؤية الضيقة عند كل رئيس دولة من تلك الشعوب وهي من العوامل الداخلية، فكان بوليفار يقول، مثلا، عن أحد الجنرالات الذي كان رئيسا مكلفا لكولومبيا «إنه بخيل ومقتر بالفطرة، لكن تبريراته كانت اشد شحا: لأن ذكاءه لم يمكنه من أن يرى أبعد من الحدود الاستعمارية» (ص 194).

ومن تلك العوامل الخارجية المهددة لعملية الوحدة الوصاية الاستعمارية على المستعمرات حتى بعد «الاستقلال» وذلك بفرض قيم اجتماعية معينة عليها وضرب أصالتها وهويتها. ففي حوار بين الجنرال بوليفار وأحد الفرنسيين قال هذا الأخير بأن « نموذج بونابارت مناسب ليس لنا فقط، وإنما للعالم بأسره».

فقال الجنرال دون أن يخفي سخريته:

«لا شك في قناعتك بهذا الكلام فالأوربيون يفكرون بأن ما تبتدعه أوروبا هو وحده المناسب للدنيا بأسرها، وكل ما عدا ذلك ممقوت».

وخلص إلى القول:

«لا نريد منكم مزيدا من الاحسان بقولكم لنا ما علينا فعله، فلا تحاولوا أن تعلمونا كيف يجب أن نكون، ولا تسعوا إلى جعلنا مثلكم ولا تنتظروا منا أن نحقق خلال عشرين سنة، بشكل جيد ما حققتموه بشكل سيء خلال ألفي سنة» (ص 131، 132). لقد أراد الجنرال بوليفار أن يتخلص من الاستعمار الفكري ويبرز هوية وأصالة واختلاف شعبه عن أوروبا. لقد قامت دراسات أنثروبولوجية (أوطو كلاينبرغ وفلسفية م. فوكو) بتفكيك المركزية الاوربية Eurocentrismeوبينت أن هناك قيما ثقافية تختلف باختلاف الشعوب والثقافات ولا يمكن تعميم قيم ثقافية غربية، مثلا، على كل الشعوب، مما يوضح مسألة النسبية الثقافية، إن نفس السيناريو (عملة التغريب والغزو الحضاري..) يعيشها العالم العربي عبر وسائل الإعلام وترويج قيم استهلاكية وهمية وواقعية غربية لا تخدم مصالح الشعوب العربية في شيء بل تضرب بعمق هويتها وأصالتها. كما ثبت فشل النماذج التنموية المستوردة من الخارج. إنه نوع من الاستعمار أكثر خبثا من استعمار الارض إنه استعمار الأدمغة وغسلها وزرع القيم وأفكار أخرى مستهدفة كما أن الديون الخارجية هي الأخرى تعتبر نوعا من الاستعمار وذلك بإثقال كاهل الشعوب المتخلفة. ولذلك فإن الجنرال بوليفار كان يكره القروض والديون: «إنني أمقت القروض أكثر من مقتي للاسبان، لذلك نبهتُ (سانتاندير) أن كل ما نفعله لخير الأمة لن ينفع شيئا إذا ما قبلنا الديون. لأننا سنبقى ندفع فوائدها إلى أبد الآبدين وها نحن أولا، نرى الأمر بجلاء الآن. لقد هزمتنا الديون» (ص 224 الرواية). إن الديون والقروض التي تعطى من طرف البنك الدولي أو من طرف الدول الكبرى ترجع لها بالفائدة أضعافا مضاعفة وذلك ما فعلته وتفعله فرنسا في افريقيا. بالاضافة إلى جعل تلك الشعوب فاقدة لقدرتها الذاتية على التطور والنماء. كما أن الديون الخارجية تضرب الاستقلال في العمق.

إن غارسيا ماركيز من الكتاب الذين يحملون هموم أمريكا الجنوبية ويعبرون عن آمالها وآلامها وطموحاتها أحسن تعبير. إنه ذلك الجنوبي الذي يتحدث بطريقة غير مباشرة عن آمال وآلام مشتركة بين دول وشعوب العالم الثالث بما فيه العالم العربي الذي يظهر لنا بتقاسيمه من خلال قراءتنا لرواية «الجنرال في متاهته».

* كاتب من المغرب

جلسة مقمرة في شرفة هادئة مع ذكرى الانسان خليل السكاكيني

زياد خداش*

■ بعد منتصف ليلة امس، طرقت بابي الذكرى الرابعة والخمسين للإنسان خليل السكاكيني، فتحت لها الباب، لم افاجأ بها فقد كنت انتظرها، كانت شاحبة وحزينة ومتعبة تتوكأ على عصا، قالت بصوت كأنه الدموع يكاد لا يسمع : ياه منذ سنوات طويلة لم يفتح لي الباب احد، في بعد منتصف ليل 13 ـ 8 من كل عام أطرق الابواب في بلادي ولا احد يفتح فاظل وحيدة، ليلة كأمية ونصف نهار، ثم اغادر الى العدم لاحاول بعد عام مرة اخرى وهكذا تمضي حياتي من باب مغلق الى اخر مغلق، اجلستها قبالتي في شرفتي المطلة على جبل وقمر يتبادلان النميمة على الشمس النائمة، وسبع غيمات يترددن بين السواد والبياض،كنت وحيدا، فالاهل والاصحاب والجيران نيام، حتى المستوطنة القريبة نائمة، الهواتف الخلوية مقفلة والحاسوب مطفأ، وكانت الذكرى وحيدة جدا، قالت لي : من انت؟ ومالذي يهمك في عظامي التي شبعت عظاما،؟ اجبتها :سيدتي الذكرى : انت لست عظاما، انت تاريخ احلامي وجمالي ودروس تفكيري وتجاربي وهواء جذوري الاول ومستقبل مدني القادمة و هواجسي، فقد علمني صاحبك خليل السكاكيني كيف اكون انسانا قبل كل شيء، ارى العالم والاشياء من منظار الانسان لا من منظار الطائفة او الحزب او العائلة ففي هذا الزمن العربي وغير العربي الذي تتصارع فيه الهويات شر تصارع، وتديره الطوائف والاصوليات شر ادارة، يحلو لي ان اكون مثل خليل بعيدا عن القوالب قريبا من الاحساس الكوني المجنح الواسع بانسانيتي . ابتسمت الذكرى، نهضت القت بالعصا جانبا، دخلت الى المطبخ، أحضرت رغيفا وقطعة جبنة وصحني زيت وزعتر ، وحبة بندورة، راحت تأكل بتلذذ ، ثم نهضت و رقصت امامي رقصة مضحكة، هي اقرب الى التهيؤ للرسم، نقشت بيديها دائرة كبيرة، همست : هذا هو العالم، دخلت الذكرى الدائرة، راحت تبحث عن نقطة فقهمت انها تريد مساحة صغيرة لتكون لها وطنا ولتشكل بها هوية، لم تجد الذكرى النقطة، فواصلت التحرك هنا وهناك، حائرة وخائفة، فهي بلا لون وبلا تضاريس وبلا اسم ، البشر كلهم يحتاجون غريزيا الى امكنة ليولدوا فيها ويموتوا ، امكنة جميلة ومميزة ومبدعة، ليفاخروا بها العالم، وفجأة صمتت الذكرى ووقفت متجمدة كأنها تحولت الى تمثال، كان رأسها مائلا الى الوراء كأنه يبحث في شكل سقف الشرفة على ايحاء ما، اليدان مرميتان في الهواء بشكل مسرحي، الفم مطبق ، العينان جاحظتان مليئتان بالدهشة المؤلمة او السعيدة ، سمعت صوتا صغيرا لكنه قوي يأتي من جهة الجبل والقمر والغيمات السبع : رائع ان تجد نقطتك ايها الانسان نقطة تحن و،تنتمي اليها وتحبها و تربي فيها اولادك وطاقاتك واحزانك واحلامك، وتعود اليها بعد منفى ما، لكن الرائع اكثر ان تشكل هذه النقطة امتدادا ودافعا لاحساس كبير بآلام العالم وهمومه، ومتاعبه، وجسرا صلبا مع خير الكون وتطوره، وان لا تصبح هذه النقطة ذريعة لقتل الاخر واعدام الالوان الاخرى، وتفجير الجسور مع القمر وقطع الحبال مع الغيوم والقمر، هذا هو درس تجربة السكاكيني مع الاخر ومع ذاته. اوه ما اعذب هذه الليلة، وحدي بلا حاسوب ولا هواتف خليوية وبلا فضائيات وبلا حروب، ليلة مع ذكرى رحيل رجل مات قبل نصف قرن، عشق القدس والسفر ونيتشة والحرية، وقدس العلم ، ومقت النفاق والذل، ذكرى رجل انسجم مع نفسه الى درجة انه غامر و استقال فورا بلا تردد من عمله الوحيد كمفتش في وزارة المعارف حين عين هوربرت صموئيل الصهيوني المنحاز الى الصهيونية مندوبا ساميا في فلسطين، الهي اين نجد من يتخلى عن لقمة عيشه هذه الايام من اجل موقف وطني؟؟، وحين قال المذيع في اذاعة فلسطين : هنا ارض اسرائيل، هاج السكاكيني وماج، واستقال فورا من الاذاعة مشترطا عودته بالقول: هنا ارض فلسطين،وهذا ما حصل. قلت للذكرى: حدثيني عن خليل الانسان والمفكر والوطني والحالم، صمتت قليلا ثم اجابت : احب سلطانة زوجته بجنون، ومضت سنوات طويلة نثر خلالها زهورا كثيرة ودموعا حتى استوعب رحيلها.

كان حساسا لآلام الاخرين ومخاوفهم بغض النظر عن جنسيتهم او لونهم، الى درجة انه خاطر بحياته من اجل ان ينقذ يهوديا كانت الدولة العثمانية تطارده، فآواه في بيته في الوقت الذي رفض اليهود انفسهم حمايته، الى ان ابغلت عنه امرأة يهودية السطات العثمانية فسيق السكاكيني مكبلا معه الى سجن في دمشق وكاد هناك ان يشنق لولا زحف البريطانيين وهزيمة العثمانيين من الذي يمكن ان يخالف الشعور السائد هذه الايام ويخبيء جنديا اسرائيليا هاربا و بائسا ومرتبكا امام زحف الجماهير في بيته ؟؟ مع تعسف المقارنة بين الواقعتين ، وماذا ايضا ايتها الذكرى؟ تنهدت واشارت لي ان تمهل، مشت باتجاه المطبخ أحضرت كأس ماء، شربته،وواصلت : كان يرفض استغلال الدين لنهب اموال الفقراء وتزييف وعيهم، وكان يعتز بعروبته فطالب بتعريب الكنيسة، لكن اعتزازه هذا لم يمنعه من التواصل بفرح وحماس مع مستجدات الابداع الغربي في الفكر والعلم والادب والتربية، كان حديثا جدا في تفكيرة ونظرته للحياة، كان من أ وائل من اكتشف خطورة هجرات اليهود وتنبأ بمستقبل مرعب اذا لم توقف هذه الهجرات، وهذا ما حصل تماما، كان يحب تلاميذه حبا، غريبا لا يشبهه حب في العالم، فلا ضرب او قمع او تهديد او تخويف ولا اجبار على حضور الى المدرسة. كانت تظريته التربوية ترتكز على احترام ميول الطالب وتشجيعها واطلاق طاقاته، الى ابعد مدى، وعلى جعل المدرسة اشبه بالمنتجع السياحي اذا صح التعبير، كان يشجع الطلاب على الاهتمام بأجسادهم، قبل اذهانهم، كان سباقا لعصره فكل ما كان يؤمن به ويحاول تطبيقه يعمل به الان في العالم الغربي، اما عالمنا العربي فلم ينظر بحماس لطروحات السكاكيني لانها تهدد تقاليده الجامدة وعقله القديم، وماضيه القبائلي، فما زال يرزح تحت قيود التخلف والجهل والسطحية والتدين المتعصب. كان جسدانيا يحب تدليل جسده بالماء والرياضة الصباحية والغذاء الجيد، توقفت الذكرى عن الكلام، ومشت باتجاه الحمام، غابت نصف ساعة، كنت اسمع الماء البارد يهبط على جسدها المتعرق، عادت الذكرى، جلست قبالتي منتعشة وسعيدة : اه ما الذ الماء البارد على جسد كجسدي، لقد علمني خليل ان استحم بالماء البارد، علمني ان امرن جسدي يوميا حتى استطيع ان امرن ذهني بعد ذلك، فالتمرينات هذه متلازمة اذ لا ذهن مرن دون جسد مرن ولا جسد مرن دون ذهن مرن، أخذت الذكرى تتمرن امامي، كان جسدها رشيقا ذكيا ومثقفا ،

تنهدت الذكرى ، نهضت، الي اين ايتها الذكرى ؟

الى بيتي فقد اوشك الصبح على الانفجار، واين هو بيتك ؟؟ بيتي هو تلك الغيمات اللواتي اصبحن الان سوداوات بعد طول ترد. في الصباح، كانت امي تسألني مستغربة : ما هذه الصحون؟؟ هل تعشيت مرتين ايها السمين، كنت اضحك.

كم احتاج صديقا لاخبره اني افطر واتعشى ليلا على يوميات خليل السكاكيني لاسباب كثيرة اهمها : البحث عن تاريخنا المخبأ وغير المفصح عنه، «من الذي عرفنا على البطل الشعبي الفلاح ابراهيم ابودية والبطل الشاب سليم الانصاري؟» وأطرفها واغربها سفري الدائم مع خليل من مدينة فلسطينية الى اخرى دون ان اصطدام بحاجز عسكري اسرائيلي، حيث يقول مثلا :اليوم سافرت الى طبريا اوصفد اوعكا لافتش مدارسها اشعر بقشعريرة لذيذة و مؤلمة،واتذكر كم هي بعيدة عكا اليوم عني، لماذا احس ان خليل السكاكيني شخص لم يوجد ؟ كم يشبه حلما ،اوبطلا في رواية ،او فلم اومسرحية،يا لحزنك وقدرك الملعون يا خليل، فقد سقطت في زمن غير زمنك، كنت مبكرا في نضجك وكانوا هم متأخرين ، كم تعذبت! وكم تساءلت! ومازالت اسئلتك في الوطنية و والتاريخ و الوجود والتربية والادب والفكر تدور في حلقات مفرغة في العقل العربي، ولا احد يجيب يا خليل، اتدري لم؟ لان كل ما هاجمته وفضحته ما زال موجودا :، الخراب الداخلي والتعصب والدناءة والنفاق والكذب والضعف والكراهية والغباء والخوف .

اخبرت اصحابي ان ذكرى خليل سهرت عندي ليلة امس، لم يعلقوا بكلمة، لم ينتبهوا اصلا، فأحست بذلك الاحساس بالألم والحزن الذي احس به الحوذي الفقير في قصة شقاء لانطون تشيكوف، فقد كان الحوذي المسكين يخبر كل راكب يركب عربته ان ابنه قد مات، لم يكن الركاب يكترثون او يسمعون، وكانوا يقولون له سق العربة واسكت، وفي النهاية لم يجد الحوذي غير حصانه ليلا في الاسطبل وهو يطعمه، ليخبره ان ابنه قد مات، كان الحصان يهز ذيله كأنه يفهم ويحزن، هذا ما اعتقده الحوذي الواهم. اما انا فلم اجد حتى حصانا لاخبره ان ذكرى خليل زارتني ليلة امس بل واستحمت في بيتي.

* كاتب من فلسطين
ZKHADASH@yahoo.com
www.ziadkhadash.com

مزمور

عبدالله عيسى *

«صوت الرب بالقوة .صوت الرب بالجلال. صوت الرب بالجلال. صوت الرب مكسّر الأرز .
ويكسر الرب أرز لبنان. ويمرحها مثل عجل ...»
مزمور لداوود. المزمور 29.

كأن جعلت فينا لتبعث قتلانا
وتتلو علينا ما تبقى من السلام.
بيروت .!
ليس لي اذن بالذي يخصني اسمك العالي به ان أجيء
فاتناً مثلما عهدتني طويلا بألقاب السلالة – موتى
ائذني أن أعد ما يليق بهم من الشواهد حتى
أكتفي بالذي ترى العيون التي قتلنني مذ رئيتُ من حور
المائلون ّعلى ظلالهم دوننا أخوة لنا
يكيدون ما كادت لنا به كف قاتلي الأنبياء
الذاهبين بغيّ نسائنا الى أسرتنا – موتى
أصابعهم تمضي الى حتفهم بنا :
قانا !
يغادر رب الجند تلموده بكوابيس الضحايا وما
أبقت أظافرها من التوسل في عينيه
، أعمى يحدق في مرآة طفلة زوجه :لماذا عليّ أن
احبك يا بنت الزنا ؟
ربما اذا عدت احميك مني بالاساطير ..لا يبكي ولا
يضحك ، لا يحيا وليس يموت مثلنا أبدا .
يعلو على الأرض مرتين :أحفادنا لن يذهبوا
بهدايانا الى غدهم .
لم تحمهم ما استطعنا من حياة ظهورنا التي
انكسرت تحت الركام طويلا من تململه وحقده في
السماء ،
لا يرى ما يرى :
دم يعض الوصايا بدم في مزامير النبي سليمان.

وقانا ..
ترى ما لا يرى العابرون والمراؤون،
والموتى الذين أتوا ليوقظوا عظم موتاهم بسقط
متاعنا .
ّ اذا جاء نصر الله والفتح ّ .
تدخل في مرآتها .. رحمةً بأرزنا يا اله الحرب :
صوتك في الغداة يكسره، وفي العشي ّ
يفسد أحلام الملائكة التي حلّت لتحرس ظلنا.
بورد السياج،
رحمةً،
بكلام لم يقل عاشقان بعد،
بالطير في أوكارها،
بالحلازين الصغيرة في الأرضين،
بالأبد الذي رأيناه يحبو في مغارتنا ويعتّق النبيذ
معجزة للأنبياء،
ورحمة بنا اللآن َ...

قانا !
لا تصدق أن الموت يبعث في مرآتها مرتين

أيها الموت !
عش بين الحجارة والوادي كما شئت،
لكننا سنبقى على شوك الصليب دما يشكوك لله
خذ جرارنا،

انما البئر القديمة والمعنى لنا .
دس على عشب الرحيل بما مسّت به رأفةً
أرواحنا.

: ّ ألا أن حزب الله هم غالبون ّ
القابضون على جمر الحياة بما أوتوا من
الأدعيات الطيبات وأسماء النبي وآله .

يا سيد الآل!
لا يحزنك بي أن أولي الأمر فينا ،اذ رأوك مثلي
بينهم أجمل الأموات ، ما صدقوا رؤياك
أوأنهم كووا دمي في فمي
هادوا عليّ ّقاتلي ، وعليكَ
ثم غلّوا يدي ّ مثلي على حائط المبكى
وهاء لهم.... أنّى بسطت يديكَ

ذاك دم الحسين يروي على قمصانهم ما تخف
خطاياهم الينا به
الحسين حوّل فينا نوحنا في معارك لم يمدّونا
بجند
الى رقص لنا :
جاء نصر الله والفتح .

والحسين بالدم يعمي قلب قاتله
بالكف ترمي مبغضيه بما يوفي
نذورا.
وحده هزم الأحزاب

ذاك فم الحسين. الله أكبر ،
الصلاة على النبي
يأتون أفواجا و من كل أم
فيض أفئدة
رحيمة بالذي لهم ،
وغلابة على العدو ومن
والاه

فلتصَر الأرض التي تحتهم قبرا لهم
اثمهم اثما عليهم
فلا يستأنسوا بجحورٍ ملجأ ،
أو طرائد لباسا

السماء وصيةً لهم ،
أو نعوشا سائغات بالذي يعمرُ
الرؤيا تطير بهم طرّا:
فلا مكانَ
على أحجارنا لظلالهم ، لا زمانَ
في مماكنا يأوي طويلا خطى
أحفادهم في دوار البحر أو رحمة
الصحراء

وليشأ الأطفال أن يذهبوا الى الجنازات بعد
القصف
مستبشرين بالذي خبأت أرحام أمّاتهم
الجبال ُان تشتكي منا الينا
وتبكي مثلنا فوق ورد السور
يقصفه اله جندهم من السماء التي كنا ورثنا
كتابها ويمبنها

كنا وما كانَ
ملح الأرض ،

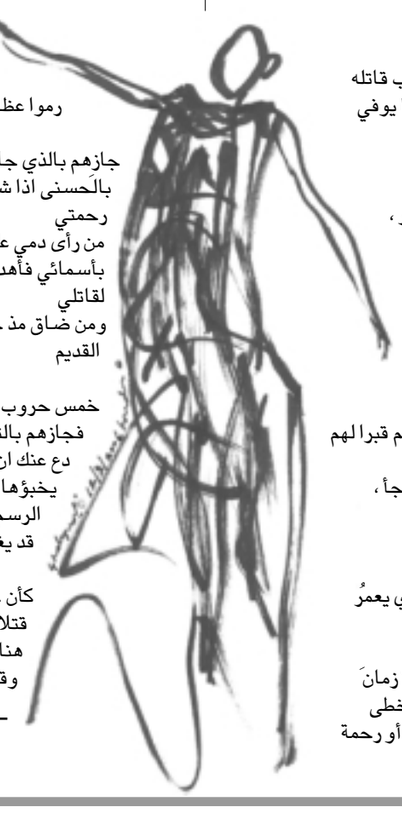

مائدة السماء
أو لعنة الأنبياء
أو تأملهم ،
لكنّ أولي الأمر منا
رموا عظامنا لكلاب الغرباء

جازهم بالذي جازوكَ يا سيد الآل!
بالحَسنى اذا شئت أو قدهم بسياط
رحمتي
من رأى دمي على آخر الصلبان يعلو
بأسمائي فأهداه من بعدي نبيذا
لقاتلي
ومن ضاق مذ جئت بمفتاح بيتنا
القديم

خمس حروب وما جاؤوا ببئري اليّ
فجازهم بالتي أحسنتَ
دع عنك ان شئتَ ابتسامتك التي
يخبؤها الأطفال في دفتر
الرسم القديم الى غدهم
قد يغضب المرء أحيانا

كأن جُعلت فينا لتبعث
قتلانا
هنا نهضوا في دير ياسين
وقانا

* شاعر فلسطيني مقيم في موسكو